

## العقرب

أن ترتطم السماوات بالأرض... شيء يتوقعه الإنسان كحدث سينهي خرافة هذا الكون اللامتناهي، وسيسبح مع روحه المنتشلة من جسده في ألوان من الطيف تتهادى بين أمواج شفافه، لا ولن يدري مستقراً لها..!  
لكن أن يحيد عن مبادئه في الحفاظ على منزله ولو خسر أطفاله وزوجه، وربما حياته، فهذا شيء لم ولن يتوقعه كحدث سيحدث.. وحتى لو حدث، سيظل متشبثاً بالأمل..!

قد يفاجأ، وذلك متوقع بأمور تحدث وهي في توقعه القلق بأنها ربما تحدث..حتى ولو طغت عليه الساعة "السليمانية" في مقيله مع أصدقائه في أي منزل.. ينتابه ذلك الإحساس المتشائم من المستقبل القريب الذي قد يبدأ بعد دقائق.

دائماً يتوقع أنباء جسيمة، وهائلة في أحداثها الفظيعة، ويجهد نفسه وهو يقود سيارته دائماً بعد المقييل..

يحاول أن يطمئن ويؤمن نفسه بأنه سيصل إلى منزله وبأن الأمور تجري على ما تركها فلا يخاف على أطفاله من وقوعهم في حادث أو أصابتهم بما لا يحمد عقباه، يفكر في نشوب حريق ربما يحدث في منزله أثناء نوم طفله الصغير وقد تركته والدته في سريره وذهبت لتقضي بعض الوقت مع جيرانهم.. أو ربما انفجر "البوتجاز" بزوجه وهي تعد العشاء للأطفال وجوارها بعض منهم.

أو أن يقتحم لصوص المنزل في غيابه لينهبوا ما فيه، فلا يجدوا مقاومة، وأي مقاومة.. الزوجة والطفل الصغير مثلاً قد يقتلوهما، أو يقتلوا الطفل الكبير الذي يمكث عادة لحراسة البيت.

أو ربما تنزل الأمطار بغزارة فتغرق السيول المنزل، كل ذلك متوقع دائماً يقلق له بجديه تصل في المقييل إلى درجة الهوس، فيتصبب منه العرق ليمسحه بحركة عصبية ملفتة لزملائه..! حمل همومه بعد المقييل كالعادة.. هي نفسها لم تتغير من توقع لحدوث كوارث ستحل به أو بمنزله أو بمن فيه..!

وأصبحت كلمة القدر غير قادرة على بعث الإطمئنان أكثر مما تدفعه للرعب، وتجعله يتوقع حدوث قدر قاس، وظالم ورهيب.. وصل حسب العادة ليطمئن من أول مدخل للحارة على عدم وجود شيء يثير الانتباه..! الحارة هي هي..

وبعض البقالات كما هي مفتوحة في هذا الوقت، وحوانيت مجاورة لمنزله يسكنها عمال "شقاها"<sup>(1)</sup>، ساهرون بمنادماتهم حول مشاكل بلادهم الريفية، وما يقاسونه من مظالم وجور من قبل مشايخهم، وعقالهم، وموظفي الحكومة.

طرق الباب.. والخوف ما زال يحتل أقطار رأسه في توقع شيء لكنه الآن أقل حدة وهو يقرع باب منزله.. وكالعادة فتحت زوجته.. لثمها بنظره المتطلع الهلوع.. فتركت الباب واتجهت إلى الداخل كعادتها لضيق الوقت لديها بمشاغل الأطفال.

ليلة وستمر بسلام.. ارتاحت نفسيته.. وأغلق الباب ولملم خياله بأي لحن يشدو به صفيراً.. وكالعادة بحث فلم يجد سوى ذلك اللحن الذي انسجمت معه شفتاه دائماً.. لحن لمحمد عبد الوهاب "عندما يأتي المساء"..

وضحك لنفسه.. أنها ليلة ككل الليالي.. نفس الواقع..! لا تغيير أبداً، ولا وجوب للقلق..! ولكن ما زالت هنالك مخاوف تتردد على وجدانه دائماً.. كأنها محنة ملازمة له.. كيف أحوال الأطفال؟؟ وهل البوتجاز مغلق بإحكام؟ وهل نافذة المطبخ التي كسر بيده جزءاً من زجاجها عنوة منذ سكن ما زالت مكسورة بحيث يصبح أي تسرب للغاز عديم الأضرار؟ ضحك هامساً لنفسه، وهو يعرف أن زوجه لن تقدم على إصلاحه خفية منه بعد أن قامت بذلك عدة مرات، ويقوم هو بكسرها عدة مرات..!

دخل..وقد حاول إعادة صفير اللحن إلى شفتيه، فلم يكن صافياً لاهتمام حواسه باستكشاف الأحوال..!

وجد الأطفال الصغار قد ناموا وبعض الكبار ما زالوا مشغولين بأشياء يخترعونها لكي يشغلوه عن خلوته المعتادة..!

اندفعت بنتاه الكبيرتان نحوه وفي يديهما عروستان كان قد اشتراهما لهما من مدينة بعيدة جداً..؟

بنت تحمل عروستها، وقد فقدت بعض ثيابها المزركشة والأخرى تحمل عروستها وقد فقدت قطعة حذائها العاجي الأبيض وجزءاً من فستانها. اندفعتا نحوه بإلحاح شرس لكي يقوم بالبحث عما فقدته العروستان خلف دولاب الملابس. ربما!! أو أي مكان آخر في زوايا المنزل...

حدث نفسه أخيراً فهو دائماً يعثر على كل ما يفقده الأطفال دائماً وعلى ما تفقده الزوجة أيضاً..!!

<sup>1</sup> شقاها: مفرد شاقى.. أي "عامل"

وبدأ على الفور لكي يسكت زعيق البنيتين بإيجاد تلك المفقودات المطلوبة..  
بدأ البحث، وهو مسرور النفسية.. مبتهج الأسارير.. وإيمانه كبير بدرجة  
عالية بأن يعثر على مفقودات عرائس بنتيه.. بحث أولاً بين أشياء متراكمة  
خلف وتحت دولاب الملابس..

ربما زوجته لا تدري ما وراء تلك التراكمات..؟ حيث وجد لها خاتماً ذهبياً  
مخفياً هناك.. كانت قد اتهمته منذ فترة بأنه أخذه.. سرقة.. وباعه لشراء  
شراب..!!

حفظه في جيبه.. وفي نيته أن يكيل لها رداً يفحمها ويجعلها تؤمن به وبثقة  
عمياء. وهذا ما يريد تحقيقه.. استمر في البحث.. الدولاب لا يسمح مع  
تلاصقه بجدار الغرفة في الإمعان،

شعر بأن هنالك شكلاً لشيء ما متعددة الأطراف يحاول الاختفاء.. أمعن  
النظر.. انها العقرب.. العقرب التي سبق لها أن أودت باثنين من أطفاله..  
كان قد طغى على لونها الأصفر لون أحمر مكشرة عن سواعد متعددة..  
وأنياب وذيل مخيف معد للقتال.. أصيب بارتياح لم يحدث له في  
حياته.. وتمالك أعصابه بعد أن أزاح الأطفال مع ما وجده من متطلباتهم..  
أخذ فردة حذائه وهوى بها على العقرب بوجل.. ورفع الحذاء.. فمرقت إلى  
تحت الدولاب سالمة وقد تركت في أعماق نفسه رعباً لا مثيل له..  
نهر الأطفال، وأهمهم مرة أخرى وهو في تلك الحالة، فأخرجهم لكي يتمكن  
من البحث...

شعر بالجبن.. وود في قرارة نفسه أن تقوم زوجته بتلك المهمة، لكنها كما  
خيل إليه جبننت وقالت:

- اتركها للصباح وسأقوم بقشع الغرفة.. وقتلها..

اعتبر ذلك منها جبناً كما خيل إليه.. ونظر إليها، فلم يجد أثراً لما تخيله.. قال  
لنفسه: "هو الجبان" ..!

مرت الأيام وما زال العقرب في وكره تحت أكوام من الأدوات، وقد استطاع  
إخلاء الغرفة الذي يقبع فيها من سكانها الذين اثروا تركها له والعيش في  
غرفة أخرى مجاورة.

ربتت على كتف زوجها، وقد بلغا من الحزن ذروته لما أصابهما ومنزلهما  
من تدهور وأحداث لوجود ذلك الدخيل الذي غير مجرى حياتهما وطغى  
يرعبهما، وأطفالهما..

قالت الزوجة وتقاسيم الأسى تعلق وجهها الشاحب الذابل.. نتيجة سهر طويل:

- إلا يمكن التفاهم حول حل أفضل؟  
- كيف.. وفي طباعه العداونية تكمن فيه فظاظة الكبرياء، والغطرسة وحب الإذلال..؟!!

- وحتى بعد ما قد حدث لبنتنا؟  
- رحمها الله.. ولكن ذلك لن يثنيني عن مبدئي..  
وتأوهت وهي تتذكر طفلتها أول ضحية للعقرب وقالت:  
- أتريد أن تفقد جميع الأبناء؟  
- فليكن..  
- وربما حياتي وحياتك..؟!  
- فليكن..

ونظر إليها وقد شدها من منكبها، ثم تراجع وقال:  
- فليكن كل ذلك. ولكن لن أترك المنزل الذي شيد من أنقاض، وبذلت في سبيل إيجاده كل حبة عرق وقطرة دم من حياتي..  
- استمرار في العناد..!  
- وإصرار عليه..

ومر وقت.. والأمور تسير من سيء إلى أسوأ.. سهر وقلق واحتجاب داخل المنزل ما بين متابعة وانتباه وحذر لتقصي خط سير تلك العقرب.. وأصبحت الوحشة تلف جميع جوانب المنزل، والرعب يسيطر على الكل.. انقطعت الابتسامة من على شفاه الأطفال.. اختفت أماكن لعبهم.. أصبحت كهوفا مظلمة تقشعر لها أجسامهم التي بدأت تنحل.. شعروا بأشياء تفقد وترحل من جانبهم.. سمعوا لأول مرة معنى النياح والحزن والبكاء والعويل.. هم يبكون دائماً ويصيحون في بكائهم دائماً اثر مشاجرات خاصة فيما بينهم أو اثر لظمة من الأب أو الأم ولكن مما يحدث هذه الأيام من بكاء وصياح عرموا معنى النياح والعويل.. كانوا يشاهدون أن بعضهم ينخبط بتشنج في الأرض ثم يهدم.. لا يرقد كالعادة إنما يؤخذ في كساء أبيض ويدخل على سرير عجيب إلى باب الجامع ثم لا يعود.. الشيء الذي يعود هو الكآبة والحزن الذي يعلو قسامات الأب والأم لم يكن يتوقع أصرار أحد أبنائه الكبار.. كان الابن يقول:

- لا بد من حل لهذه المأساة يا أبي.. لا يمكن أن نخضع لليأس من مواجهة هذا الوضع.. هي معركة يا أبي ولا بد أن نخوضها أو سأخوضها وحدي..
- لا تكن مجنوناً إلى هذه الدرجة..
- بمقدوري إنهاء هذا الوضع في أي لحظة تأذن لي فيها..
- لا يا ولدي..

كانت أحشاؤه تتمزق.. يكفي ما أصيب به.. لكن أن يتصور حتى مجرد أن يتصور أن يتعرض ابنه الكبير لأذى فهذا ما لا يطيقه.. وهو الذي يبني عليه الآمال الكبار والأحلام الخيالية في إسعاد الأسرة إذا ما رحل.. وقطب حاجبيه بغضب:

- لا أريد أن أغضب عليك.. كن مطيعاً في استماع أوامري..
- لكنها يا ولدي أوامر اتبعناها وفشلت لأنها صادرة من منطلق العاطفة.. وكلفنا ذلك تضحيات جسيمة فقدت أنت فيها أحب أطفالك وفقدت فيها أنا أعز أشقائي..
- - كن صبوراً..
- كيف..؟

شعر لأول مرة في قرارة نفسه بأن عليه أن ينهي هذا الوهم الخادع الخامد لأنفاسه ككابوس هائل. أن يقتل كل شيء يعكر صفو حياته.. امتشق يده القوية الطويلة الملتحفة بعروق بارزة ممتلئة بالدم المنعكس بلون أزرق داكن من الخارج.

وتوجه بها نحو مدخل المخبأ الذي استقر عليه رآيه بعد فحصه بإمعان دقيق.. توجه بيده كأنها عمود من نار تبحث عن ذلك الذي يطلب حياته للموت.. وامتدت يده كعمود من نار ملتهب بالحقد.. وانفتحت أصابع يده المتحفزة تبحث من خلال الظلام الدامس عن الوكر المخيف كأنها منظار غواصة حربية نازية تجوب أعماق المحيط..

ولسنت رؤوس أصابعه ملامح ذلك الرابض.. فانقضت عليه وبحرارة المشتاق الناقم فرckte بين ثناياها بشدة..

وعلا صوته قوياً برنة انتصار تحمل نبرات الأنين والألم الشديد الذي يعانیه.. لقد لدغته..

لم يأبه لذلك بل استمر في ضغطه وبعنف.. كان خائفاً أن تضيق وتهرب منه..

تجمع الأبناء مع أمهم في لهفة.. سحبوه على وجهه وبطنه وما زالت يده بعروقها الخضراء الداكنة الملتحفة بيده المتصلبة المنصوبة إلى الأمام.. القابضة على ذلك الرعب مفروكاً بين أصابعه.. والذي لم يستطيعوا إخراجهم من داخل ثنانيا وعطفات أنامله ويده.. كانت البرودة تلمس على جلد اليد بل الجسم وكانت عيناه مفتوحتين إلى آخرهما ببلاهة إلى السقف.. لكن الابتسامة ما زالت على شفثيه الجافتين اللتين ابيضتا ثم طغى عليهما اللون الأصفر الذي استدعى تواجد ذباب أزرق يحوم حولها.. وكانت جنازة مهيبة..

شملت الحارة كآبة.. وقد مر طفح في وجوه المشيعين.. ومن خلال تتبع حوارهم مع بعضهم البعض.. السماء ملبدة بالغيوم.. ودوامات من الرياح المفعمة برذاذ متفرق من الأتربة وقطرات المطر تؤذي الناس بوقعها على وجوههم.

النعش المسجى عليه الفقيد يتهادى على أكتاف رجال الخير الذين يتقربون إلى الجنة فيدخل فناء المسجد.. وزعيق النسوة المولولات بالنياح الباكي ينتهي بعد أن يفقدن الأمل بدخول فناء المسجد لكي يعدن إلى أسطح منازلهن لانتظار موكب الجنازة الخارج من المسجد من جديد، وعلا النياح والأشجان والهموم والآلام وكل عقد عصر العرب الراهن على المسجى في نعشه المرفوع على أكتاف الرجال.. أما النساء فهن إما في النوافذ أو على أسطح المنازل..

وطغى على الجميع المشاعر المشتركة.. غضب يكاد أن يكون موحداً.. وعلتهم مسحة من كآبة وغم وقلق على مصيرهم أيضاً!! وحداهم شعور بأن مصيرهم مثل مصيره. في النعش وبأن عليهم التكتاف لكي يجلسوا منازلهم ويظهروها من ذلك الشيء المرعب الدخيل على حياتهم..

ترنيم جنازي:

- لا إله إلا الله..

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

محمد رسول الله..

وفي المساء:

ابسط لنا يا خير فضلك في بسوط السلامة

يا دائماً لم تزل.. يا دائماً لم تزل.

الأحد: 12 أكتوبر/1980م